الفصل الثالث عشر

بوذا والبرمجيات

صلات قديمة وحديثة

والآن دار دولاب القـدر دورة كاملـة، ومرة أخرى تنظر الهنـد والصين إحداهما نحو الأخـرى وتحتشـد الذكريـات في أذهانهمـا، ومرة أخرى يعـبر حجاج من نـوع جديد أو يطيرون فـوق الجبال التي فصلتهم، مستحضرة رسائلهم مـن الابتهاج والنوايا الحسنة ،وتنشئ روابط من الصداقة التي سوف تدوم.

جواهر لال نهرو[1]

افترض نهرو فكرة حُسْن الصحبة الطبيعية بين الصين والهند وأشار إليهما بوصفهما "بلدين عظيمين وحضارتين عظيمتين"[2]. وفي كتابه (اكتشاف الهند) عرض نهرو بشكل دؤوب البيِّنة على التبادلات القديمة الدينية والعلمية، التي تركزت في القسم الكبير منها في البوذيـة المسافرة مـن الهند إلى الصين، واقترح نهرو أن هـذه الروابط التي تبلغ من العمر ألفية من الزمان عرضت فرصاً لم يُستمد منها ليتعلم أحدهما من الآخر وليتعاون أحدهما مع الآخر.

فرضت الأزمنة على نهرو أن يتصور مستقبلاً لآسيا تتعاون فيه بلده الهند مع الصين بلـد مـاو، على الرغم من إعلان الهند ديمقراطية علمانيـة، ومن اعتناق الصين لما دعاه ماو "الديكتاتورية الديمقراطية". ونهرو هو الذي نسق حضور الصين في باندونج في عام 1955 وفقـاً لذلك. ولكن آمال نهرو سحقت بعنـف لاحقاً بسبب الحرب الصينية الهندية في عام 1962. وبعد هزيمة الهند، بقيت العلاقات باردة طوال أربعة عقود من الزمان.

ومـرة أخـرى اليوم تكـون المخاطر عاليـة. فمستقبل آسيـا مرتبط ارتباطـاً لا يمكن الخلاص منه مع 2,4 مليون من البشر الذين يعيشون في الصين والهند. وقد رفع، مؤخراً،

وزير التجارة الصيني بو شيلاي، ونظيره الهندي، كمال ناث، هدف التجارة الثنائية بينهما إلى مبلغ 50بليون دولار على الأقل بحلول عام 2010 [3]. وينص بيان رسمي أصدره ناث: "التبادل التجاري في الاتجاهين بين الهند والصين هي الآن عند مبلغ بليون دولار في الشهر، مقارنة بمبلغ بليون دولار في السنة قبل عقد من الزمان. هذه الزيادة التي بلغت اثني عشر ضعفاً في العقد الماضي تتجه إلى أن تثبت فقط أننا وإن كنا متنافسين في العديد من النواحي، فنحن أيضاً يكمل أحدنا الآخر ويضيف أحدنا إلى الآخر"[4].

والرمزية، وخصوصاً الرمزية البوذية، قد تم إحياؤها أيضاً. والإشارات إلى الروابط القديمة المركزة في البوذية وفي التبادل التجاري والارتباطات التجارية القديمة كذلك تشكل الآن الخلفية التي يتم عليها في الوقت الحاضر تدبير الأعمال الرسمية وإدارتها. وعلى سبيل المثال، فإن كثيرين من القادة الهنود، ومن جملتهم رئيس الوزراء بي. في. ناراسيمها راو في عام 1993 ورئيس الوزراء أتال بيهاري فاجيبايي في عام 2003 قد قاموا برحلات إلى معبد بيما سي (الحصان الأبيض) في مقاطعة هينان في الصين. ومعبد الحصان الأبيض هذا هو الصرح الذي يشكل علامة بارزة لوصول البوذية إلى الصين قادمة من الهند في القرن الأول. ووفقاً للأسطورة، كان المعبد قد بني لإحياء ذكرى راهبين بوذيين هما شي موتينج وجو فالان، اللذين كانا قد جاءا من الهند ومعهما النصوص الدينية لدينهما محمولة على ظهر حصان أبيض.

والصينيون يتحولون إلى خبراء مهرة في اقتران البوذية مع الأعمال. زميلي داكون جاو، الذي كان واحداً من لجنة الاستقبال الصينية المرحبة بفاجيبايي إلى معبد الحصان الأبيض، أخبرني وقال: "كان هناك موضوعان نوقشا بين حاكم مقاطعة هينان ومعاليه (فاجيبايي). الأول كان البوذية، والثاني كان البرمجيات. فالحاكم أظهر اهتماماً عظيماً ببرمجيات الهند. وقد اقترح معاليه أن يقوم الحاكم باستكشاف الصناعة في الهند"[5].

تجديد الروابط التجارية بين الصين والهند يقدم إمكانيات لتعلم بعضهم من بعض. بعد ستة أشهر تماماً من زيارة فاجيابي، كان جاو في طريقه من الصين إلى حيدر أباد، التي تقع في الولاية الهندية أندرا براديش. وكانت بعثة جاو تقصد مقابلة شاندرابابو

نيدو، الوزير الرئيس الخبير بالتقانة الهندية. لقد كان نيدو هو أول من سمى حيدر أباد "سايبرأباد"، أباد الافتراضية، مدركاً للمدينة بوصفها اللاعب الكبير في قصة النجاح المستمرة للبرمجيات في الهند. وبصفتها بعثة واحدة من بعثات صينية كثيرة إلى الهند برعاية الحكومة الصينية، فإن فريق جاو كان عازماً على استكشاف العديد من نواحي صناعة البرمجيات الهندية وأخْذ تلك المعرفة والعودة بها إلى الصين، التي كانت تكافح في بناء مشروعات للبرمجيات. تلك البعثة رجّعت أصداء الجهود الصينية التي بذلت قبل ألف عام لتشرب تفكير الهند البوذي.

ومن سوء الحظ أن الحكومة الهندية كانت عاجزة عن أن تنشئ إطاراً تستطيع من داخله أن تأخذ دروساً من الصين. وأن أي حاجة ماسة للتعلم من الصينيين أو للاستفادة من الأسواق الصينية تكشف عن نفسها في المبادرات الفردية للقطاع الخاص المؤسسي الشركاتي الهندي الجسور.

بقية بوذية

بوذا الذي ولد باسم سيدهارتها غوتاما في البلاد المعروفة اليوم باسم نيبال، بشَّر بأن الارتباط بالحقائق المادية الدنيوية هو السبب في المعاناة العقلية والجسدية. وهذه الطريقة مكشوفة لجميع الذين يتبعون الطريق الوسط، وهي المبادئ الفطرية للحياة الصالحة التي تستبعد كلاً من فرط الانغماس والزهد غير الضروري في الوقت الذي يقرر التأمل والتفكير الهادئين ويوحي بهما. ولم يسمِّ بوذا خلفاً له. بل على العكس، فقد كان يعتقد أن أي شخص يستطيع أن يصير بوذا، أي شخصاً متنوراً. "يجب أن يكون كل واحد منكم مصباحاً لأنفسكم"، هذه كانت كلماته عند الموت[6]. تحاول البوذية أن تغرس السلام في كل فرد يعيش في العالم مغموراً بالمعاناة والاضطراب. بهذا المعنى، تبقى دروسها اليوم ذات علاقة.

في الولايات المتحدة أدت الرواية (سيدهارتها)، التي قرئت على نطاق واسع في الستينيات من 196، أدت إلى إحداث موجة مرتفعة في شعبية البوذية. كتب الرواية المؤلف الألماني هيرمان هيس الحائز جائزة نوبل، وتتابع الروايةُ الرحلةَ الروحية لرجل

هندي اسمه سيدهارتها يعيش في أثناء زمن البوذا. والكثير من موضوعات الرواية مثل، الشك في العقيدة، واكتشاف المرء لطريقه الخاص به إلى التنوير، والصراع بين حيازة الممتلكات المادية وبين الوصول إلى التنوير الروحي، كانت موضوعات وجدت لها صدى قويا مع "حركة الشباب" في ذلك العقد.

وتعاليم بوذا جزء من أي تعليم جيد في مدرسة ثانوية في الهند. وبناء على تلك الألفة فقد حصلت على أشكال شبيهة لبوذا من سلسلة من البلدان طوال السنوات، وهي مجموعة بدأت بتمثال من خشب الورد من جنوب الهند، هدية من والديّ حين وصلت لأول مرة إلى الولايات المتحدة في السنة الثامنة عشرة من عمري، وكنت طالباً مستجداً في الكلية. وبيتي الآن مستودع لتماثيل بوذا أو صوره التي حصلت عليها لا من الصين فقط، بل من نيبال أيضاً، وأجزاء من جنوب شرق آسيا، وحتى من أستراليا. ومواقع الصور تقص قصة مثيرة للاهتمام عن انتشار البوذية. والصور في آن واحد بقية من تفاعلات تجارية وسياسية سابقة، وهي أعراض لحسن صحبة كامن قد يكون من الممكن له حتى الآن أن يسهل المزيد من التفاعلات المستقبلية. ولذلك، ليس من المثير للعجب أن أجد نفسي متجولاً بعيداً عن أماكن زياراتي المتكررة التجارية المعتادة إلى بعض أهم تجليات البوذية الحديثة في الصين، إلى بقايا قرون من التفاعل الدائم بين الصين والهند.

قادتني جولاتي إلى معبد الحصان الأبيض في مدينة لوويانغ، وتقع في الجزء الغربي من مقاطعة هينان عند فم طريق الحرير. وهو في الواقع شبكة من الطرق المترابطة ودروب القوافل التي تمتد خمسة آلاف ميل، وقد خدم طريق الحرير بصفة طريق عام كبير للسلع وللمعرفة بين أوروبة، والشرق الأدنى، والصين، والهند طوال قرنين من 200 قبل عصر المسيح.

وأسطورة الحصان الأبيض تبدأ في 60 من عصر المسيح، حين رأى الإمبراطور مينغ من أسرة هان الشرقية رؤيا عن "رجل ذهبي" له هالة تحلق فوق رأسه. وأثَّر المنام في الإمبراطور إلى أن سأل مستشاريه عن تأويل له. وأجاب أحدهم "في الغرب هناك معبود يدعى بوذا. وجسمه ستة عشر تشي ارتفاعاً "12 قدماً" ولونه لون الذهب الحقيقي"[7].

الإمبراطور مينج المحب للاستطلاع أرسل بعثة دبلوماسية إلى الهند لتتعلم عن البوذية وترجع معها بالنصوص المقدسة الخاصة بها. عادت البعثة في 67 من عصر المسيح، ومعها راهبان بوذيان هنديان بارزان، وهما شي موتينج وجوفالان[8]، وحصان أبيض يحمل النصوص البوذية وشكل لبوذا. وتختم الأسطورة ببناء معبد الحصان الأبيض لإحياء ذكرى إدخال البوذية الهندية إلى الصين.

ومجمع المعبد اليوم موقع للسياحة أكثر مما هو مكان للتأمل. عشرات من الباعة المتجولين المحنكين على جوانب الشوارع يبيعون أحصنة فخارية لامعة وجمالاً، والمَغْرَة، (الطين الأحمر)، وقضبان البخور. وفي أثناء زيارتي لاحقني باعة البخور بدأب، وهم ينغِّمون لي: "قضيب بخور لكل بوذا"، وهم يعنون أن علي أن أشتري قضيب بخور لكل صورة من صور بوذا التي أعتزم أن أقدم لها عبادة دينية. التجارة المتنامية للحصان الأبيض تنعكس أيضاً في رسوم الدخول إلى المعبد وهي 35 يوانًا، وهو ما يعادل تقريبا 4,50 دولار. وعلق مرتاد قديم بأن الهنود كانوا يدخلون مجاناً في العادة، ربما اعترافاً بأصول البوذية. وإذا أخذ في الحسبان عدد الهنود المتجولين في الصين في هذه الأيام، فإن المعبد قد قرر بلا شك أنه لا يستطيع أن يتحمل التخلي عن العائدات.

حين مشيت من المدخل إلى المعبد نفسه، استمتعت بمنظر شامل مديد. ولون المعبد نفسه بني مشرب بالحمرة، ويختلط بانسجام مع البيئة الطبيعية، والرهبان يتحركون حول المكان بكتلة متحركة من اللون البرتقالي وهم يؤدون الواجبات الرهبانية اليومية، وخيالات طلعاتهم مرئية قبل وقت طويل من رؤية وجوههم. وعلى الطرف المباشر للمعبد، نسخة من الحصان الأبيض وفق أسلوب معين، مثقل بالمخطوطات، ويرمز للحظة المحدِّدة للمعبد.

المجمع الذي تبلغ مساحته اليوم 430,000 قدم مربع كان قد أنشئ في أثناء أسرة مينج (1368 1644)، بقنطرة ذات سطح عند المدخل يقدم طريقاً بثلاثة أبواب على فناء مستطيل يواجه الجنوب. معبد الحصان الأبيض الأصلي، بني من الخشب ولم يستطع أن يصمد أمام ويلات الحروب وعاديات الزمان. وتوحي السجلات اليابانية أنه كان يقف

في مركز مجمع معبد اليوم الحاضر. والمعابد البوذية الهندية لها من الناحية النموذجية باغودة في المركز أو هيكل في المركز محاط بالقاعات والأبراج. ومركزية الباغودة (وهي كلمة من أصل لغوي غير مستَيّقَن، ويعتقد بعضهم أنها مشتقة من الكلمة السنسكريتية بهاغافات، أو مقدس، مثلما هو في الكتاب الهندوسي المقدس، بهاغافات غيتا)، وتبدو رمزاً لتأثير الهندوسية على البوذية في الصين، ولتوصيل الاعتقاد بأن المعبد هو مركز العالم.

والمجمع الداخلي مجموعة كثيفة من المزارات، وكل مجموعة منفصلة بأفنية صغيرة. وغطاء دخان البخور يحوم فوق الرؤوس، ويحدد الرؤية من حين إلى آخر. وعبادة الأسلاف، كما يرمز لها بالغيوم الكثيفة من البخور الفواح بالرائحة الطيبة، وهي طقس مهم. وفي أي فناء من الأفنية الصغيرة يستطيع الأفراد الملتزمون أن يشعلوا أكواماً كثيفة من البخور وأن ينحنوا نحو كل الجوانب من المعبد ليضمنوا "مزية" لأنفسهم ولأسلافهم قبل وضع عيدان البخور المشتعلة في محارق ممتلئة. ويزيل الرهبان بكفاءة عيدان البخور المستهلكة وينظفون الرماد ليفسحوا حيزاً للمزيد من تقديم الطقوس الجديدة.

في ضباب من البخور يزداد كثافة حصلت على محادثة مع راهب كان يبدو في مطالع أربعينياته. كان يكنس واحداً من الأفنية الصغيرة في معبد الحصان الأبيض وكان يغني لنفسه. تحدث بحيوية معي لمدة تقارب عشرين دقيقة قبل أن يصير إما غير مرتاح أو نافد الصبر ليتابع القيام بمهمته. ولاحظت حين كنا نتحادث كان يوجد راهب آخر يحوم بالقرب منا، محركاً عيدان البخور ومبدياً على ما يفترض فضولاً على نحو لا يكاد يصدق.

ومن الراهب، علمت أن التعيينات في المستويات العليا للمناصب في التسلسل الهرمي الرهباني تخضع للمناورات الشديدة، مثلما هو في معظم الأديان المنظمة. والاختلاف في الصين هو أن في كل من الأديان الخمسة الكبيرة للأمة، وهي المسيحية، والكونفوشيوسية، والتاوية، والإسلام، إضافة إلى البوذية، تكون التعيينات للمناصب العالية، مثل رئيس دير الرهبان للحصان الأبيض، من قِبل الحزب الشيوعي الصيني لا من قِبل أي سلطة دينية. فلا غرابة أن أدت هذه الخطة السياسية إلى الجدال. وعلى سبيل المثال، في عام

2000 تشاحنت بيجين والفاتيكان على تعيين الأساقفة الكاثوليك في أرض الصين الرئيسة من قبل الحزب وعلى إعلان البابا 120 شهيداً صينياً قديسين من دون السعي إلى أخذ موافقة الحزب[9].

وأخبرني الراهب أن كون الشخص قد سمح له بالدخول إلى خدمة البوذا مهمة صعبة، وهي مهمة يعتنقها من هم دون العشرين ومن هم في الخمسين من أعمارهم على حد سواء. أما الفتيان الطامحون فيجب عليهم أن يحصلوا على موافقة آبائهم للدخول إلى خدمة المعبد. ويستغرق الأمر العديد من سنوات الدراسة والتتلمذ والتدريب في الإعادة من نوع أو آخر. وبعد أن يكونوا قد رسموا كهنة فهم أحرار في أن ينتقلوا إلى أي دير رهبان في الصين في أي وقت، على الرغم طبعاً من أنهم كلما صاروا أعلى مرتبة في التسلسل الهرمي في الرهبنة، زاد تدخل الحزب ليقرر تعييناتهم.

رهبان وتجار.. هَنْدَنَة الصين

على الرغم من أن الأساطير مغرية، فالحقيقة تكمن في التبحر في العلم. وقد تحدثت أنا مطولاً مع تانسين سين، وهو اختصاصي بالشؤون الصينية مقره في نيويورك من أصل هندي وهو ينازع في أسطورة الحصان الأبيض. وأخبرني سين فقال: "أول ناقلين للبوذية إلى الصين كانوا على الأرجح تجاراً لا رهباناً"[10]، وقد أخبرني سين بذلك، وهو يشير إلى الرحلة البحرية التي قام بها جانج شيان (مات في عام 114 قبل عصر المسيح)، والذي كان قد أرسله بلاط هان ليكتشف طريقاً بديلاً للتبادل التجاري إلى آسيا الوسطى. وفي الحقيقة هناك بينات كثيرة موجودة تدعم نظرية أن التجارة والتبادل التجاري بين آسيا الوسطى والصين والهند سبقت وصول البوذية.

ومع ذلك، فالمدة التي كان قد بني في خلالها معبد الحصان الأبيض تبقى مدة مهمة؛ لأنها كانت مقاربة لذلك الزمان الذي بدأت فيه البوذية تستقبل رعاية كريمة من النخبة السياسية الجديدة في الصين. والظروف السياسية الأخرى داخل الصين أنشأت أيضاً الفرصة لدين أجنبي أن يزدهر. فالصين الشمالية سقطت تحت سيطرة شعب ليس من الهان، وهو شعب لم يكن يمارس لا التاوية ولا الكونفوشيوسية، وهما الديانتان الكبيرتان

في الصين في ذلك الوقت. وعلى نحو مشابه فالحكام الصينيون الذين كانوا قد صاروا غير راضين بشكل متزايد عن معتقدات الكونفوشيوسية احتلوا الصين الجنوبية. لقد قدمت البوذية بديلاً جذرياً راديكالياً. وبحلول القرن الرابع كانت نسبة 90% تقريباً من الشعب في الصين الشمالية الغربية بوذية. وفي عام 477 كان يقدر أن 6,478 معبداً بوذياً، وأن 77,258 راهباً وراهبة كانوا يشغلون شمال الصين، وأن 2,846 معبداً وأن 82,700 من رجال الدين كانوا في الجنوب[11].

ولاحظ سين أنه "كان هناك ملمحان متميزان موجودان في هذا العصر، وهما التبادل التجاري والترجمة، وكلاهما أدامتهما البوذية". كانت الترجمة ضرورية لأن النصوص البوذية كانت في الأصل مكتوبة باللغة السنسكريتية ومحفوظة في الهند. وكان الصينيون يعرفون أن ترجمة المعتقدات شرط مسبق للتبشير في صفوف جمهور أوسع ولتأسيس مؤسسة رهبنة. وتابع سين يقول: "آليات الترجمة لم تكن سهلة، لأن الصينيين لا يتحدثون السنسكريتية، وهكذا فقد ضمت الترجمة في الغالب عدداً يبلغ أربعة أشخاص: شخص يتلو النصوص السنسكريتية، وشخص يترجمها، وشخص يكتبها، ثم يقوم الرابع بقراءة مسودتها وتصحيحها. كانت الترجمة عملاً شعائرياً، شمل حاشية كبيرة من الرهبان كانت تلقى المأوى في أديرة الرهبانية، وعاشت على الرعاية من كل التجار والملوك".

ومشروعات الترجمة المرعية من البلاط أحضرت العديد من الرهبان البوذيين الهنود وجمعتهم مع نظرائهم الصينيين معاً في أثناء فترتَي أسرتي سوِي وتانج. وقد ترجم جيناغوبتا، وهو راهب هندي وصل إلى الصين في النصف الثاني من القرن السادس، ترجم سبعة وثلاثين نصاً أصلياً إلى الصينية، وبهذا كسب عطف إمبراطور تانج[12]. ومعظم الترجمات البوذية في أثناء تلك الفترة كانت مركزة في ثلاثة معابد مشهورة رعاها البلاط. وكانت هذه المعابد هي: معبد دا شينج شان، أسسه الإمبراطور وين من أسرة سوي، في عام 582، ومعبد دا سيان سي، تأسس في عام 646، وهو مشهور بحيازته أعمال شوانزانج، وهو راهب مشهور، وعالم، ورحال، ومترجم، ومعبد شيمينج سي، أسسه في عام 657 الإمبراطور غاوزونج. وفي لوويانج، موطن معبد الحصان الأبيض،

استمـرت نشاطات الترجمة، وبعد أن نقل الإمبراطور يـانج من أسرة سوي عاصمته من داشنـج إلى لوويانج، أمر بتشكيـل "مكتب ترجمة"، ضم خبراء أجانب وصينيين[13]. وفي مكتـب الترجمة قام دهارماغوبتا، وهـو راهب دعاه نهرو (المعلـم الهندي) قام بترجمة نصوص بوذية عديدة من اللغة السنسكريتية إلى اللغة الصينية.

بحلـول القـرن الرابع كان علمـاء ورهبان من بـين الصينيين يغامـرون بالذهاب إلى الهنـد. وأحد هؤلاء الرحالة كان فاشيان، الـذي غادر العاصمة القديمة تشانج آن (وهي اليـوم شيـآن في مقاطعـة شاآنشي) في عـام 399، وذهب بـراً إلى آسيـا الوسطى، وزار المواقـع البوذية في الهند، ثم اتخذ طريقاً بحرياً إلى الوطن استغرق أربعة عشر عاماً. في الصحائف التي كتبها في سَفَره يشير فاشيان إلى الهند بوصفها مادهايادیسا، وهي تعني في السنسكريتيـة والهندية (المملكة الوسطى)، اللفظ نفسه الـذي استخدمه الصينيون ليصفـوا الصين. ومعاصرو فاشيان كانوا مفتونين فتنة كافية بالهند بوصفها موقع الآثار البوذية، وكانوا يشيرون إلى الصين بوصفها أرض الحدود.

ربما كان أبرز راهب صيني زار الهند هو شوانزانج الذي يحتفى به في التاريخ الهندي بوصفـه الراهب الصيني الذي استضافـه هارشافاردهان حاكم معظم ما هو الآن الهند الشماليـة. وكان ذلـك الراهب قـد سافر عبر الهند في القرن السابـع وقضى العديد من السنوات في جامعة نالاندا، مركز العلم البوذي في ذلك الوقت وجامعة من أقدم جامعات العـالم[14]. وقد أشـار شوانزانج إلى الهنـد بوصفها ييندو، وهو لفظ مـازال يستخدم في الصين.

سـون شويون التي مشـت على خطى شوانزانج في أسفاره على طول طريق الحرير من آسيا الوسطى إلى الهند ورجوعاً على الطريق نفسه، سجلت وقائع رحلتها في (عشرة آلاف ميل من دون غيمة). وهي تكتب: "عَرَف شوانزانج أنه في آخر المطاف وجد الوطن الفكري والروحي الذي كان يبحث عنه، وهو يخبرنا أن الدخول إلى جامعة نالاندا كان بالتنافس: بضعـة أسئلة من الرهبان عنـد البوابة أعادت معظم الطامحين إلى الدخول إلى بيوتهم، الذيـن يحصلون على موطئ قدم في داخل الباب كانوا يخضعون للأسئلة من المعلمين بلا

هوادة، وهؤلاء المعلمون يرفضون أربعة من كل خمسة. إن عشرة الآلاف راهب الذين كانوا في النهايــة مقبولــين للدخول كانوا صفــوة الصفوة. وفي هؤلاء وجــدَ النظراءَ الحقيقيين لحبــه للاستطلاع ورغبته في التعلم"[15] ولإعطاء القارئ الحديث بعض الإحساس بروعة هذه الجامعة القديمة. تضيف سون: "الخرائب الفخمة لنالاندا... تمتد فوق أربعة عشر فدانــاً، وتمتد فيها مجموعات أبنية واحدة بعــد الأخرى من حجرات الرهبان، مع خمسة معابــد وأحد عشر ديراً للرهبان... ويمكنك اليوم أن تحصل على بعض الفكرة عن روعة المكان إذا تخيلت أربعاً أو خمساً من أضخم كليات أكسفورد موضوعة جنباً إلى جنب، ثم دُمرت كأن ذلك كان بفعل زلزال".

ومع نمــو شعبية البوذية وشيوعها بين الأنساق العالميــة من المجتمع الصيني، نما مثل ذلــك الطلب على البنود الطقوسيــة، وأكثرها بروزاً الآثار البوذيــة. وقد استجاب رجال الأعمــال الهنــود المستثمرون وتجار آسيا الوسطى بتصدير الآثــار والبنود الطقوسية إلى الصــين. وكما أخبرتني ســين: "كان هناك رابطة مريحة بين التجــار والرهبان. وأديرة الرهبنــة خدمــت بــدور فنــادق ومستوصفات للتجــار المسافريــن. كانت الأديــرة أماكن للإقامــة، وإذا مرض أحد النــاس اعتنى به الرهبــان. والسفن التجارية في الغالب قدمت الركــوب للحجاج البوذيــين. والإحساس بأن هــذه الرعاية سوف تباركهــم كان إحساساً موجــوداً بلا شك وأسهم في تحالفهم. وفي الحقيقة كان أولئك التجار أنفسهم هم الذين كانوا بعض أكبر الرعاة لهذه الأديرة والمعابد البوذية".

في الثلاثينيــات مــن 1930، ألقــى هيو شيه، وهــو أستاذ للفلسفــة في جامعة بيجين، خطابــاً في احتفــالات جامعــة هارفارد للقرن الثالــث وفي ذلك الخطاب صــرح بالادعاء المدهش بأن التأثير البوذي في أثناء القرن السادس في الصين أدى إلى "هَنْدَنَة" الصين. وبحســب ما يقوله هيو، كانــت المسألة مسألة استعارة ثقافية ضخمة مثل ضخامة تنصير أوروبــة. وجادل هيو بأننا إذا أخذنــا في الحسبان ضخامة الاختلاف بين الكونفوشيوسية التــي كانت سائدة من قبل (التي شددت على عبادة الخلف والسلف) وبين البوذية (التي بشــرت برفض الحياة، وبالتأمل، والوصول إلى تحقيــق النيرفانا)، يكون ترسيخ البوذية ديناً رسمياً للعديد من الأسر الحاكمة الصينية أمراً جديراً بالملاحظة.

ومـع ذلك، وبحلـول القرن الثامن، فإن بعض الأديـرة، وكل واحد منها مدينة صغيرة مكتفيـة بذاتها، اكتسبت سمعة سيئة بالتحول من النشاطات الدينية والمساعي الرهبانية إلى الزراعـة، والتبادل التجاري، وإقراض المال. ومع هـذا التحول جاء الفساد والتصور بـأن الرهبان كانوا يستغلون المواطنين المحليين. واستجاب الإمبراطور ووزونج الذي حكم مـن عام 841 إلى عام 847، بالأمر بالتدمير العام لـكل المؤسسات البوذية الفاسدة منها أو غير الفاسدة.

ومع ذلك، أخبرني سين، أن البوذية في شكلها الجديد استمرت في الازدهار في الصين تحـت أسرة سونج (960-1279)، إضافة إلى ازدهارهـا في الهند الشرقية. وشرح سين: "بحلول نهاية القرن العاشر، كانت البوذية في الهند والصين قد اتخذت مسارين مختلفين جـداً. ففي حين طـورت البوذية الهندية تقاليدها الفلسفيـة والطقوسية (المقتصرة على فئـة قليلة)، صاغ رجال الكهنوت الصينيـون ونشروا تعاليمهم البلدية الخاصة بهم. هذا الافـتراق أنهى عصراً دام ألـف سنة من التفاعل الصيني الهندي القوي الذي حفزه نقل العقائد البوذية ونشاط الحج".

في الهند دقت الغزوات الكاسحة من المسلمين الأتراك، التي امتدت من القرن التاسع حتى القرن الثاني عشر، جرس الموت للبوذية. ودمر الغزاة العديد من جامعات الأديرة في شمـال الهند، وقتلـوا العديد من الرهبان المعروفين جيداً. وفي عام 1193 هاجم المسلمون وقهـروا ماغادها، التي كانت الأرض المركزية للبوذيـة في الهند. ودمرت الأديرة البوذية في نالانـدا تدميـراً كامـلاً، وبقي منها الخرائب التي نقبت عنها الآثار فقط، وهي مجرد (10% مما سجل شوانزانج في ذروة نالاندا، إضافة إلى مركز حديث للدراسات البوذية، الذي كان قد تأسس في عام 1951.

وفي نهاية الأمر اندثرت البوذية في الهند، ولكن العلاقات التجارية بين الصين والهند بقيـت. وكان الاختلاف الوحيد فقط هو أن التجـار البوذيين حل محلهم التجار المسلمون والهندوس. وفي أثناء أسرة تانج (618-907) وأسرة سونج (960-1279) ازدهـر التبادل التجـاري الصينـي مع المملكـة الهندية الجنوبيـة من أسرة تشـولا. وبدأت قـوة الأسـرة القديمـة تشولا تصـل إلى الذروة في منتصـف القرن التاسع، وصـارت في نهاية المطاف

أضخـم إمبراطوريـة في الهنـد الجنوبية سبق أن وجـدت مطلقاً. وتـروي السجلات من أسرة تانج أن التجار العرب كانوا في الغالب يقفون في مرافئ في الهند وعلى طول مضيق ملقا في طريقهـم إلى الصين الجنوبية. وكون الشتات الإسلامـي قد هيمن على التجارة علـى كل جوانب المحيط الهندي كان قـد تأكد من كتابات أبي عبدالله محمد بن بطوطة، الرحالـة العربي المشهـور في القرن الرابع عشر الذي خدم سلطـان دلهي بصفته سفيره إلى الصـين. وخمـن ابن بطوطة أن هـذا الانبعاث التجاري الجديد مسـؤول عن إحضار الإسـلام إلى جنوب شرق آسيـا[17]. ووفقاً لما يقوله سين: "في القـرن الثاني عشر... بدأ التجار الصينيون يسافرون إلى جنوب شرق آسيا... ولذلك، ولأول مرة في تاريخ علاقات الهنـد والصين، قام المسؤولون في البلاط، والتجار، والسفن من الصين برحلات متكررة إلى المناطـق الساحلية مـن الهند، وأسهموا بذلك في موجة من التجارة البحرية والتبادل الرسمي بين المنطقتين". والصين التي كانت آنئذ تحت حكم أسرة مينج، نهضت لتصبح واحـدة من القوى البحرية العظيمة. كان هذا العصر هو الذي قاد خلاله المستكشف من القـرن الخامس عشر جينج هي، سبع حملات بحرية رائعة على طول المحيط الهندي بين العامـين 1404 و1433، وأول رحلة منهـا شهدت أسطوله، "أسطـول الكنز"، متجهاً إلى كالكوتا مركز التجارة الكبير لجنوب الهند.

ومـرة أخرى، أعاد وصول القوى الغربية في القـرن السادس عشر، وبشكل أكثر بروزا وصـول البرتغاليـين، تجديد ارتبـاط الصين والهنـد، وفي هذه المرة حـول الأفيون. وأول سجـلات لزراعة الأفيـون في الهند تأتي من القرن الخامس عشـر وتشير إلى ولاية مالوا بوصفها مركـزاً "عظيما" للإنتاج[19]. وأفضل الأفيـون كان مشتقاً من نبات الخشخاش المزروع في سهول نهر الغانج الخصبة ذات التربة المكونة من الطمي، ونهر الغانج هو أقدس نهـر في الهند. في البداية، كان التجار العرب والهنود هم تجار الأفيون، ولكن بحلول عام 1637 كان الأفيون قد صار السلعة الرئيسة في التجارة البريطانية مع الصين. كان أفيون الهنـد يبادل بـه الشاي الصيني. وبعد أن أمسك البريطانيـون بالسيطرة السياسية على الهنـد في عام 1776، تنازل المغول الحاكمون عن حقوقهم في تجارة الأفيون إلى الحكومة البريطانية والتجار المستقلين.

وهكذا انتقلت الهند من تصدير الدين إلى تصدير الأفيون. وحين حاولت السلطات الصينية أن تقمع استخدام الأفيون واستيراده، بعد أن صار قسم ضخم من سكان الصين مدمناً عليه، واجهت الصين غضب البريطانيين والقوى الاستعمارية الأخرى. ونشب القتال نتيجة لذلك في حربين للأفيون. وخسرت الصين كلا الحربين. وكانت إحدى النتائج المباشرة لهزيمة الصين هي أنها أُجبرت على فتح موانئها للدخول، وعلى منح امتيازات تجارية للتجار الأجانب. والذين كانوا يسهلون هذه التجارة هم التجار الخاصون الذين خدموا بصفة وسطاء للقوى الاستعمارية. وكان أبرز هؤلاء هم التجار الزردشتيون من الهند الذين بنوا شبكات تجارية ممتدة المدى من كانتون وهونج كونج في النصف الأول من القرن التاسع عشر. والزردشتيون، بالإضافة إلى اليهود والبهرة المسلمين (الذين جاؤوا من الهند أيضاً)، كانوا قد أسسوا شبكات تجارية واسعة المدى من مدن مثل كانتون في الصين وبومباي وكالكوتا في الهند حتى قبل حروب الأفيون في الواقع. بعد الحروب قام الزردشتيون ببساطة بتحسين خبرتهم، وساعدوا في تسهيل التجارة بين البلدين[20]. وطوال كل هذا الأمر ندَّد موهانداس غاندي بتجارة الأفيون بوصفها غير أخلاقية وعنّف التجار الهنود على إسهامهم في إدمان الصين.

ومع تضاؤل تجارة الأفيون، صارت تجارة القطن أكثر حيوية. وإلى عام 1870 فإن مانشيستر في إنجلترا كانت قد ملأت عملياً كل حاجات الصين القطنية. ولكن حين وصل احتكار شركة الهند الشرقية إلى نهايته، تولى التجار الهنود القيادة. وصارت بومباي في الحال المركز العصبي لتصدير القطن إلى الصين، تماماً مثلما كانت بالنسبة إلى الأفيون[21].

من بوذا إلى البرمجيات.. إمكانات التعاون بين الصين والهند

التعاون مثل باغودتين تماماً، إحداهما الأجهزة الصلبة والأخرى البرمجيات. وبجمعهما معاً، نحن (الصين والهند) نستطيع أن نتولى موقع القيادة في العالم. وحين يأتي اليوم المحدد، فسوف يدل على مجيء القرن الآسيوي.

من صناعة تقانة المعلومات

رئيس الوزراء وين جياباو، يتحدث في بنغالور الهند[22]

تبعد مدينة هانغجو، مسافة سياقة ساعتين عن شنغهاي، وهي مدينة معروفة من أجل معابدها البوذية ومن أجل كونها مركزاً لصناعة البرمجيات النامية في الصين، على السواء. ومثل معبد الحصان الأبيض، يجسد معبد الروح المنسحبة (لينجين سي) الروابط الصينية الهندية القديمة، ويقال إن المعبد كان قد بني في عام 326 على يدي راهب هندي اسمه هويلي، وصل إلى الصين من غرب الهند. وعلى الرغم من أن المعبد، مثل المواقع البوذية الأخرى في الصين، قد استسلم للمرشدين السياحيين العدوانيين وللباعة المتجولين في الشوارع وهم يبيعون تذكارات، فالمعبد مازال يستثير إحساساً ضخماً بالتاريخ والإيمان.

وفي أثناء زيارة إلى معبد الروح المنسحبة، كنت أحدق في قمة الحجر الكلسي النقي التي ترتفع سبع مئة قدم فوق مجمع المعبد حين أخبرني مرشدي السياحي أنّ "الراهب هويلي أخبر الناس في هانغجو بأنه في حين لم تكن قمة الحجر الكلسي تتلاءم مع بقية المنظر الطبيعي في هانغجو، كانت توجد تلال مشابهة في ماغادها"، مركز البوذية في الهند وتقع في المنطقة التي تشكل الآن ولاية بيهار. وأعلن هويلي أن هذه الذروة كانت هي "الذروة التي طارت من بعيد". وصدقه الناس ولذلك سموا الذروة باسم "التل الهندي". وعلى أحد الجدران الداخلية للمعبد، اكتشفت دليلاً آخر عن التبادل الصيني الهندي القديم. لقد ميزت نقشاً على صخرة للرمز أوم، وهي الكلمة التي كانت تنطق في بداية كل الصلوات الهندوسية تقريباً. وآخر دليل عن العلاقات الصينية الهندية وجدته أنا في هذا المعبد، على كل حال، لا هو بالتاريخي، ولا علاقة له مع البوذية وأساطيرها المرافقة لها. وجود الناس الهنود في المدينة قص قصة جديدة من التعاون.

إنها قصة الكيفية التي قدَّمت بها الحكومة الصينية، في جهد منها لإنشاء صناعة برمجيات، الحوافز لشركات البرمجيات الهندية كي تستثمر في الصين. ونتيجة لذلك، يعيش الهنود ويعملون بين الصينيين في هانغجو. وتماماً مثلما قام الرهبان الهنود

المرعيون من البلاط برحلات ليترجموا النصوص البوذية في الصين القديمة، فإن خبراء البرمجيات الهنود يجري إغراؤهم من جانب الدولة الصينية كي يقلبوا قوتهم في البرمجيات إلى شكل يمكن أن يفيد الصينيين.

قبل الثمانينيات من 1980 كان مفهوم صناعة برمجيات صينية مفهوماً من قبيل الاستعارة البلاغية التي تعبر عن الشيء ونقيضه. وفي ذلك الوقت لم يكن قد جاء أي منتج برمجيات مهم من أي واحد من مختبرات البحث المملوكة من الدولة في الصين. وكانت الموارد الموضوعة تحت سيطرة الدولة، من المال والموهبة، قد وجِّهت بالدرجة الأولى نحو مشروعات المعدات الصلبة الرئيسة للاستخدام المدني والعسكري. ثم صرحت الحكومة الصينية بأنه كان يجب أن يتم بناء صناعة تقانة معلومات حديثة لترقية ولتحديث اقتصاد الصين. وبشكل محدد، جادلت الحكومة بأن مشروعات تقانة المعلومات ستركز نشاطها في القطاعات الرئيسة من الاقتصاد الصيني. وشجع مشروع البطاقة الذهبية الحكومية على تبني تقانة المعلومات في الأعمال المصرفية، وركز مشروع الجسر الذهبي على شبكات الاتصالات القومية من بعد، وشجع مشروع الجمرك الذهبي حاسوب الشبكات من أجل التجارة الأجنبية. وبرغم هذه الجهود القومية، لم يبرز، على كل حال، قطاع برمجيات نشيط. وبحلول نهاية التسعينيات من 1990 كانت صناعة البرمجيات الصينية مازالت تتكون من شركات صغيرة، ومتشظية، ومازالت مفتقرة إلى مهارات الإدارة، لا تمتلك غير خبرة قليلة مع المشروعات الكبيرة النطاق، ولا تمتلك عملياً زبائن دوليين. ولم يتم إبداع منتج محلي من نوعية عالية. وجادل المحللون في أنه كان من غير الممكن أن تترسخ صناعة البرمجيات في بلد لم تكن فيه حقوق الملكية الفكرية محمية[23].

وقريباً من ذلك الوقت بدأت صناعة البرمجيات في الهند تصنع أنباء عالمية. فالشركات الهندية قد أخذت سوق البرمجيات في العالم بغتة. ومن المثير للاهتمام، أن ارتفاع صناعة البرمجيات الهندية كان منتج الصدفة والتوقيت بقدر ما كان منتجاً لمخزون الهند الضخم من مهندسي الحاسوب المؤهلين تأهيلاً عالياً والمتحدثين بالإنجليزية ولرجال الأعمال المستثمرين. ونظراً إلى أن الحكومة الهندية كانت مشغولة جداً بتنظيم سوق المعدات الصلبة، نمت صناعة البرمجيات من دون الانتباه إليها تقريباً. وكما عبر

عــن ذلك اثنان من العلماء، كان نجاح صناعة برمجيــات الهند "في القسم الكبير منه، خليطاً من مورد المواهب الطبيعية، ومن مزيج من الإهمال اللطيف والتشجيع النشيط من حكومة هي في العادة حكومة متطفلة، ومن التوقيت الجيد" [24].

في بدايــة الألفية الجديدة، كان التفــاوت بين صناعات البرمجيات الصينية والهندية تفاوتــاً شديداً. وكانت الصناعة الصينية قد امتلكت شركات صغيرة عديدة. فعلى سبيل المثــال، الشــركات السبعــون في القمــة مثّلت مجملاً من المبيعــات بلغ أقل مــن 3,2 بليون دولار، أو نصــف مجمــل المخرجات، وفي الهنــد الشركات الخمس والعشــرون مثّلت أكثر من ثلثي العائد الإجمالي للصناعة. وشركات البرمجيات القمة في الصين امتلكت عوائد أخفض إلى حــد بعيد من تلك الموجودة في الهند، وأعداد من الموظفين أقل إلى حد بعيد. وأضخم شركات البرمجيات في الصين، مثل شركة البرمجيات الوطنية الصينية وشركة الخدمــات ونيوسوفت لديها أربعة آلاف ومائتا موظــف وثمانية آلاف موظف على كشوف الرواتــب، علــى التسلسل، مقارنة بأضخــم الشركات الهندية، التــي استخدمت أكثر من عشــرة آلاف موظف في كل واحدة منهــا. وربما كان أهم ما في الأمر، هو أن عمل شركات البرمجيــات الصينيــة أضاف القليل إلى صناعة العالم مقارنــة بعمل نظيراتها الهندية، وأقــل من نسبة 6% من مخرجــات صناعة البرمجيات الصينية كان قــد صدِّر بالمقارنة بنسبة 70% من مخرجات الهند[25].

داخــل الصين صــارت الفجوة بين تطور تقانتهــا للمعلومات وتقانــة الهند للمعلومات فجــوة واضحة على نحو متزايد. وكانت افتتاحية في (بيبولز ليبريشن آرمي ديلي) يومية جيشــ التحرير الشعبي في عــام 2000 قد حذرت من قبل ضــد "الاستعمار المعلوماتي"، وجادلت في أن على الصين أن تطور برمجياتها الخاصة بها، لأنه "من دون أمن معلوماتي لن يكون هناك أمن قومي في الاقتصاد، أو السياسة، أو الشؤون العسكرية"[26]. واستجابة لذلــك أصدرت الحكومة الصينية خلاصتين لسياســة كان القصد منها بعث النشاط في صناعة البرمجيات المحلية.

الأولى، صدرت في عام 2000، وكان عنوانها حرفياً، "رقم 18: بعض السياسات لتشجيع تطوير البرمجيات وصناعة المعلومات والاتصالات (آي سي)". والثانية، صدرت في عام 2002 وكانت "رقم 47: خطة عمل لبعث النشاط في صناعة البرمجيات". وكلتا الخطتين أدرَجت حوافز ضرائبية ضخمة جداً من أجل صناعة برمجيات الصين إضافة إلى إعانات مالية للتدريب والتعليم. وأنشأت الحكومة أيضاً سلسلة من المناطق الاقتصادية الخاصة مكرسة لتطوير صناعة التقانة. أي، بعد أن أخفق الصينيون في تطوير شركات برمجيات من مرتبة عالمية بجهودهم الخاصة، كان الصينيون يعطون شركات البرمجيات الأجنبية القائدة الفرصة للعمل في الصين، ليمكنوا الصينيين بذلك من أن يراقبوا ويتعلموا.

منطقة هانغجو لتطوير صناعة التقانة العالية هي منتج لذلك الجهد. وبوصفها واحدة من الإحدى عشرة قاعدة لصناعة البرمجيات، فهي تغطي مساحة ثلاثة وثلاثين ميلاً مربعاً، وتستضيف ألفاً وخمس مئة مشروع. وتعالج هيئة للمنطقة كل القضايا المتصلة بتأسيس الشركات أو المشروعات، وتسجيلها، وتقديم الطلب من أجل تحويلات الأرض، ودفعات الضرائب، وتقديم الطلبات من أجل براءات الاختراعات، وتنقلات الأفراد، والمسائل الإدارية الأخرى. وزيادة على ذلك، تُمنح العلامة التجارية الصينية، وهي معاملة تفضيلية للاستثمار المباشر الأجنبي، تُمنح للشركات التي ترغب في إقامة موضعها في هانغجو[27].

وأنالَ رجالُ الأعمال المستثمرون الهنود أنفسَهم هذه الفرص وانتفعوا بها. ففي عام 2002 أقامت شركة تاتا للخدمات الاستشارية، وهي شركة تابعة لأقدم مجموعة عمل في الهند، هي بيت تاتا، مركزَ تطوير كوني في هانغجو، وهو يقدم خدمات من النهاية إلى النهاية لشركة الخدمات الاستشارية في منطقة آسيا الباسيفيكي. والمركز يتعاون مع بعض الجامعات القائدة في الصين، ومن جملتها جامعة جيجيانج في مدينة هانغجو. والبحث المشترك والتنمية جعلاه المركز الأول للحلول الهندسية لشركة خدمات تاتا الاستشارية في خارج الهند. وبحلول عام 2003 كان المدير التنفيذي الرئيس للشركة،

سوبرامانيام رامادوراي، قد سمي المستشار الفخري لتقانة المعلومات لمقاطعة شانغدونغ ولمدينة هانغجو[28]. وبسرعة لحقت شركة إنفوسيس تكنولوجيز بشركة تاتا للخدمات الاستشارية إلى مدينة هانغجو مستمدة من الموهبة المحلية.

في عام 2007 قابلت رجل الأعمال المستثمر بريان يانج في نانجينج، وهي بلدة أخرى ضمن مجمع برمجيات الصين الصاعد الذي يشمل شنغهاي وهانغجو ونانجينغ. يانج الذي كان سابقاً مسؤولاً كبيراً في إحدى أكبر شركات الصين للملابس، وهي لذلك كانت مملوكة من الدولة، شرح لماذا بدأ شركةَ عمليةِ أعمال الحصول على الموارد من الخارج تسمى يونايتدإنفو تخصصت في علاقة الزبون بالإدارة، وهي مهمة رئيسة في أي وظيفة تسويق لشركة حديثة، فقال:

قابلت زميلاً هندياً من فصلي في مدرسة هارفارد في عام 2005 كانت شركته ناجحة جداً في تقديم خدمات أعمال تجارية أوفشور للحصول على الموارد لشركات غربية كبيرة أو الخدمات في غير بلد الشركة الأجنبية. ووصف كيف كان يستخدم مركزه، مركز الاتصال وتقانات المعلومات الأخرى التي تمثل أحدث ما في العالم ليخدم حاجات الزبائن العالميين البعيدين جداً من الهند. واليوم كبرت الشركة إلى عملاق يضم 25,000 نسمة. نموذج العمل التجاري، وما كان قد سار من خلاله، كان أمراً له علاقة بي. فبعد أن رجعت من مدرسة هارفارد للأعمال، بدأت أستكشف إمكانية تقديم الخدمة نفسها في الصين، وأنا أعتقد جازماً أنني أمتلك على الأقل ميزة واحدة، وهي أن زملاء فصلي الهنود لن يمتلكوا فرصة للتنافس معي: فاقتصاد الصين النامي نمواً سريعاً قد أنشأ طلباً محلياً ضخماً من كل من الشركات المحلية والشركات الأجنبية المقيمة في محل في الصين.

وأدركت أن الصينيين كانوا يستطيعون أن يتعلموا الكثير من الهنود في هذا المجال. وإقناع العملاء بأن يعطونا بياناتهم الأساسية كي نستطيع أن نساعدهم على إدارة حاجاتهم التسويقية، هو إقناع يتطلب عملية انضباط لا تكاد تصدق. يجب علينا أن نطمئنهم أن بياناتهم آمنة ولن يساء استخدامها. وهذا شيء لم تمتلكه بعد شركات البرمجيات الصينية. ولكننا في طريقنا إلى الوصول هناك[29].

وسألته عن الشركات الهندية العاملة في الحصول على الموارد من الخارج التي تعمل في الصين. ولم يكن يانج متفائلاً بشأن هذه الشركات. "سوف تجد أن من الصعب أن يتعاونوا في بيئة يكون فيها رين مي (ren mai) مهماً، ورسالة الموافقة في الغالب ليست هي الشيء الوحيد في الأعمال التجارية. فهم في الشركات الهندية متعودون على البيئة الدولية للعقود أكثر من أن يجدوا التشغيل في الصين سهلاً".

ورددت: "وماذا لو استأجروا مواهب صينية جيدة؟"

ووجد يانج هذا مسلياً بشكل لطيف. "ربما في المدى البعيد، في المدى البعيد جداً، سوف يجدون هذا قابلاً للتنفيذ عملياً ومجدياً. ولكن بالنسبة إلى الشخص الصيني يكون ذهابه ليعمل لدى جنرال إليكتريك موضع موافقة. فمثل هذه الشركات الأمريكية الضخمة. ليست متنافسة مع الصينيين، إنها شركات متقدمة أمامنا إلى حد بعيد جداً. ولكن ذهاب الصيني ليعمل لدى شركات هندية فهذا يعادل العمل لدى منافس، فإذا كان الهنود يستطيعون عمل هذا العمل، فنحن أيضاً يجب أن نكون قادرين عليه".

أيكون من الممكن أن عمالقة الهند في عمليات الأعمال التجارية لخدمات الوصول إلى الموارد من الخارج والشركات الصينية المبتدئة مثل يونايتدإنفو كانت تركز في قطاعات مختلفة؟ قال يانج: "هدفي هو الشركات الواقعة في مدى مبيعات من 50 إلى 500 مليون آرام بي "7 ملايين دولار إلى 70 مليون دولار" وحتى الآن تماماً نسبة 90% من مبيعاتي هي لشركات صينية تابعة للشركات الغربية المتعددة الجنسيات، ويقع حجمها في معظم الأحوال في هذا المدى. في الأمد الأطول آمل أن المزيد من الشركات الصينية المحلية سوف يضم منتجاتنا. ولكن هذه عملية تثقيفية. تذكّر أن الهنود استغرقوا عقداً من الزمان لإقناع الغربيين باستخدام برمجياتهم. وأنهم لم يقنعوا الشركات الهندية أبدا. فالأمر سيستغرق بعض الوقت معنا".

الشركات الهندية تؤكد أنها تسعى خلف الأقسام نفسها. فبعد كل شيء، جاءت شركات مثل تي سي إس وإنفوسيس أولاً إلى الصين لتخدم حاجات الزبائن من الشركات المتعددة الجنسيات التي كانت أكثر من مرتاحة معهم أكثر من راحتها مع الصينيين

المحليين الذين كانوا يعرضون ما هو متوافر في ذلك الوقت. من المؤكد أن إطلاق عمل تجاري صيني محلي أمر صعب، للأسباب نفسها التي أشار إليها يانج. وعلى كل حال، على الرغم من أن على الهنود أن يتعلموا أن يستأجروا المواهب الصينية ويحفزوها، وأن يبقوا أحياء في عالم العلاقات الصينية الحالك، يجب في نهاية المطاف، على الصينيين أن يتعلموا انضباط القطاع الخاص الحديث ومهاراته العملية.

واختتم بريان بصورة المرآة عن التعليق الذي قاله عن حاجة الهنود إلى أن يتعلموا كيف يجتذبون الصيني. "لو كنت أستطيع أن أخمن كيف أمتص المواهب الهندية العالية إلى شركتي، لكنت أحب أن أفعل ذلك. فمع سهولتهم في الأعمال التجارية العالمية واتصالاتهم العالمية، وانضباطهم في العملية، سنكوّن فريقاً لا يقهر". إن نجاح شركات مثل شركة تراكتورات أناند ماهيندرا التي تتخذ مومباي مركزاً لها، وهي تضم الموهبة الصينية والهندية هو نجاح يشير إلى أن ذلك التعاون يمكن أن يتحقق.

وكما توحي قصة يانج ومبادرات لا عداد لها على مستوى الدولة، يحاول الصينيون أن يتعلموا. فهل الهنود يقومون تقريباً بالقدر نفسه؟ في تناقض حاد لخطة الصين التي تقودها الدولة وتنفذها للاستثمار في خلق بيئة تعزز التعلم من أفضل الموجود في أعمال البرمجيات، وفي تناقض لرغبة رجال الأعمال المستثمرين الهنود في أن يصيروا جزءاً من البيئة، يقف عجز الدولة الهندية لتخطط أو لتنفيذ استثمارات مشابهة في المجالات التي تتخلف فيها الهند خلف الصينيين.

فالهند تستطيع أن تتعلم، على سبيل المثال، من نجاح الصين في قطاع المعدات الثقيلة، وهو من بين أكفأ القطاعات في العالم اليوم. وطوال العشرين سنة الأخيرة انتهز عمالقة التقانة في العالم فرصة التكاليف المنخفضة للعمالة والحوافز المعروضة من طرف الصينيين ليقيموا مصانع على أرض الصين الرئيسة. وبحلول عام 2003 جاء خمس مجمل الصادرات، وجاء أكثر من ثلث النمو في صادرات الصين، من مثل هذه المصانع[30].

أخبرني كيران كارنك رئيس ناسكوم في الهند (جماعة الضغط لصناعة البرمجيات في دلهي)، أن الصينيين أرسلوا البعثة بعد البعثة إلى بنغالور وإلى حيدرأباد ليدرسوا وليتعلموا من نجاح الهند في البرمجيات. ولكن الحكومة الهندية فشلت في أن تنشئ حتى الشبيه لإطار تستطيع من خلاله الشركات الهندية أن تتعلم من البراعة الصينية المتفوقة. وعلى الرغم من أن شركات هندية مثل إنفوسيس، وتي سي إس، و إن آي آي تي (وهي واحدة من أنجح شركات تقانة المعلومات للتعليم والتدريب) مدعوة لتعليم الخريجين الصينيين أفضل الممارسات في صناعة البرمجيات في الهند، فإن الهند برغم ذلك لا تحاول أن تتعلم من الصين.

البائع الصيني الكبير للاتصالات شركة هواوي تكنولوجيز كانت واحدة من شركات التقانة الكثيفة القليلة التي استثمرت في جهود بذلتها لتستمد من المواهب الهندية. وذلك الاستثمار انفتح على فرصة رئيسة للهنود ليتعلموا من الصينيين، وخصوصاً من شركة كانت تتحدى سيادة الجميع حتى سيسكو. ولكن لسوء الحظ، قد ألغيت أي فرصة للعمل المشترك، لا بالادعاء أن هواوي كانت تعمل في قطاع يمكن أن يعرض للخطر الأمن القومي للهند ولكن بالارتياب التقليدي نحو الخارجيين أيضاً.

في الخمسينيات من 1950 علق نهرو على عدم الرغبة التاريخية الهندية وعدم القدرة على التعليم من الصين: "في أثناء هذه الآلاف من السنين... تعلم كل بلد شيئاً ما من البلد الآخر، لا في مناطق الفكر والفلسفة فقط، ولكن في الفنون وعلوم الحياة أيضاً. ربما كانت الصين قد تأثرت بالهند أكثر مما تأثرت الهند بالصين، وهو أمر مؤسف، فبالنسبة إلى الهند، كانت تستطيع على نحو جيد أن تستقبل، وتربح لنفسها، بعض الحكم الحصيف من الصينيين، وبمساعدة هذه الحصافة كانت تستطيع كبح خيالاتها الخاصة المفرطة... أخذت الصين الكثير من الهند ولكنها كانت دائماً قوية وواثقة بنفسها لتفهمه بطريقتها الخاصة ولتدخله في مكان ما في نسيج حياتها الخاصة. وحتى البوذية نفسها وفلسفتها المعقدة لم تستطع أن تخمد حب الحياة والمرح في الصينيين"[31].

زيارة ثانية إلى نالاندا.. التعلم والمعرفة في الصين والهند

منذ قرون خلت سهلت الجامعات البوذية القديمة مثل نالاندا التبادل الدنيوي بين الصينيين والهنود في مجالات متنوعة مثل الحساب، والفلك، والأدب، واللغويات، والموسيقى، والفنون الجميلة، والطب، والصحة العامة[32]. وحتى في أثناء القرن التاسع عشر، وعلى الرغم أن تجارة الأفيون أفسدت العلاقات بين الهند البريطانية والصين بقيت إمكانية التبادل الثقافي في المقام الأول في عقول الكثيرين من أصحاب العقول البارزة من الصينيين ومن الهنود.

وعلى سبيل المثال، فقد كان لرابيندرانات طاغور، القاص الهندي، والشاعر، والمربي، والحائز جائزة نوبل، كان له معرفة عميقة في التبادل الثقافي الصيني الهندي التاريخي. ويحتمل أنه حاول إعادة إبداع نالاندا، فأنشأ طاغور قسم الدراسات الصينية الهندية في عام 1937 في جامعة فيزفا بهاراتي، المدرسة التي كان قد أسسها قبل ست وثلاثين سنة في مدينة شانتينيكيتان في البنجال الغربي. وفي الحفل المقام لافتتاح قسم الدراسات الصينية الهندية، أعلن طاغور: "هذا في الحقيقة يوم عظيم بالنسبة إليّ... حين أكون قادراً أن أسترجع... الوعد بالإبقاء على تفاعل الثقافة والصداقة بين شعبنا ووعد الصين (...)". وتابع يقول: "(في زيارة) إلى الصين منذ عدة سنوات شعرت بلمسة من التيار العظيم للحياة التي نبعت من قلب الهند وفاضت وانسابت عبر الجبال والصحراء إلى تلك الأرض البعيدة، فأخصبت قلوب شعبها (...). أصدقائي، لقد جئت لأطلب منكم أن تفتحوا ثانية قناة الاتصال التي آمل أن تكون مازالت هناك (...). وإن الثقب الذي يجب أن يفتح اليوم سوف يخدم ليكون نواة ورمزاً لذلك الفهم الواسع الذي يجب أن ينمو مع الزمن"[33].

وجد طاغور متعاوناً في العالِم الصيني تان يون شان، الذي قابله طاغور لأول مرة في سنغافورة في عام 1927 ودعاه فيما بعد ليدرِّس في شانتينيكيتان. وقام تان بمساعدة

طاغور بجمع الأرصدة وشراء مئة ألف كتاب لقسم الدراسات الصينية الهندية من الصين من خلال جمعية ثقافية صينية هندية، كان تان قد أسسها في نانجينج في 1933.

وحين عين طاغور العالِم تان مديراً لقسم الدراسات الصينية الهندية، رفض تان تسلُّم راتب بسبب الأحوال المالية للمدرسة. ودخلت الحكومة الصينية لتقديم مكافأة شرفية. وكان تان قد صار نوعاً من مبعوث خاص بين الحكومتين الصينية والهندية. وفي الحقيقة، من خلال تان، كان نهرو، وطاغور، وآخرون قد أرسلوا رسائل الهند في تأييد للصين ضد اليابانيين، والعديد من الرسائل سلمها تان شخصياً إلى تشانج كاي شيك. وبلغ اتصال تان ذروته في قيام القائد العام تشانغ كاي شيك وزوجته بزيارة إلى الهند. وكان الزوجان مسرورين بعمل قسم الدراسات الصينية الهندية، وأعلنت الصين منحة أخرى من 50,000 روبية (18,000 دولار) في ذلك الوقت.

بعد أن نالت الهند استقلالها في عام 1947، مُنح تان اللقب الإضافي، الممثل الثقافي. وهنأ رئيس الوزراء نهرو العالِم تان: "أنا آمل بأننا بمساعدتك وبمشورتك سوف نطور المزيد من الاتصالات الثقافية مع الصين"[34]. وجاء ميلاد جمهورية الصين الشعبية تحت ماو فخلق ثغرة مؤقتة فقط في شروط التبادل الثقافي، وجاء تجديد التبادل مع منحة خاصة من 500,000روبية (152,000 دولار) من أجل مكتبة مركزية في فيزفا بهاراتي.

وفي عام 1952 وقع نهرو اتفاقية بانشيل مع الصينيين[35]. وكان ينظر إلى الباشيل، وفي الهندي بانش هي خمسة، وتشير كلمة شيل إلى طرق السلوك، بوصفها ضمانة ضد الحرب بين الصين والهند. واستجاب الهنود بصيحة الابتهاج "الهنود والصينيون إخوة"، وبناء على إلحاح تان دعي رئيس الوزراء شو إن لاي إلى الزيارة ليستقبل درجة فخرية من شانتينيكيتان. وبروح ذلك العصر، قال غاندي لتان، "أنا أتوق إلى الصداقة الحقيقية بين الصين والهند المستندة لا إلى الاقتصاد والسياسة ولكن إلى الجاذبية التي لا تقاوم. حينئذ سوف تتبع الأخوة الحقيقة للإنسان"[36].

رحلــة شو إن لاي إلى شانتينيكيتــان كان سيقدر لها أن تكون آخر إشارة من الصداقة الحقيقية، على كل حال، وبحلول عام 1960 بدأت التوترات الحدودية بين الصين والهند، وكانــت الدبلوماسية تتلاشى بسرعة. وحين قام البرلمــان الهندي بالمساءلة عن نشاطات تــان، تجاهــل نهرو على ما يظهر المشرعين، مؤكداً أن تان كان صديقاً للهند طوال خمسة وثلاثــين عامــاً. ولكــن في اجتمــاع احتفالات عــام 1962 لفيزفــا بهاراتي، صــرح "نهرو المنكســر" بأنه على الرغم من الحــرب الصينية الهندية، يجب علــى الهنود والصينيين أن يبقــوا أصدقاء. وبكى تــان علانية أمام الجمهور؛ لأن عمل حياتــه قد وصل إلى نهاية مفاجئــة، وتحول قسم الدراسات الصينية من خــزان فكر ثقافي فكري عظيم إلى مجرد معهد للغة الصينية.

وعلــى كل حــال، بقي تان ثابتــاً على غايتــه وهي ترقيــة الروابط الصينيــة الهندية. ولــدى تقاعده من شانتينيكيتان في عام 1971، كان تــان يمتلك رؤية دفعته إلى العمل من أجــل إنشــاء أكاديمية بوذية عالمية، تقيــم موقعها في بوده غايا. وقــام الوزير الرئيس في الولايــة الهنديــة بيهار بمنح تان الأرض الضرورية إلى جانب المعبــد الصيني الذي كان تــان قد ساعد على بنائــه قبل عدة سنوات خلت. ومرة أخرى انصب المال من هونج كونج وسنغافورة استجابة لجمع التمويل الذي قام به تان. وفي عام 1979 منحت فيزفا بهاراتي درجة فخرية إلى تان. ومات في بوده غايا بعد أربعة أعوام.

ومــا من جامعــة رئيسة صينية أو هنديــة تمثل اليوم الإمكانية لإعــادة إنشاء الامتياز الــذي كان لنالاندا مثلما تفعل جامعة فيزفا بهاراتــي. والجامعات الصينية الرئيسة مثل تشينغووا تتطلع نحو النماذج الغربية لمدارس الأعمال، ونحو منظور معقول يُعطى للنجاح في كل أنحــاء العــالم للنموذج الأمريكي من ماجستــير إدارة الأعمال. ومن ناحية أخرى، فــإن قص أثر كلية صينية مهتمة بقضايا الأعمال التجارية الصينية الهندية حتى تجدها هو أمر قريب من البحث عن إبرة في كوم من التبن.

وضآلة الاهتمام العلمي والتعاون مضاعفة في الهند. فمعاهد الإدارة الهندية المتميزة، المنتجــة لمواهب الهند العالية في ميــدان الأعمال، تقوم بجرأة بربــط نفسها مع المدارس

obeikandi.com

الغربيـة. ومدرسـة الأعمـال الهندية في حيدرأبـاد، وهي محاولة لإنشـاء مدرسة أعمال وفـق خطوط أمريكيـة بشكل كامل، وهي مزودة بهيئة مدرسـين بالدرجة الرئيسة تدربوا في الولايـات المتحدة، تزعـم أنها مكرسة لتعزيز الموهبة الإداريـة لا في الهند فقط بل في كل آسيـا أيضـاً. ولكـن القليل يُعمل من أجـل رعاية التعلم عن الصـين. وهذا صحيح في الموضوعات الأخرى كذلك. وعلى الرغم من أن نيودلهي تضم معهد الدراسات الصينية، وهو ينمو خارجاً من مجموعة غير رسمية من العلماء الهنود المهتمين بالعلوم الاجتماعية في الصـين، من أن بيجين تملك فعلاً علماء في العلـوم السياسية وعلماء اجتماع يركزون اهتمامهم في جنوب آسيا، على الرغم من ذلك، تكون تلك الجهود التي تستحق الاحترام جهـوداً ضئيلـة بالنسبـة إلى فجـوة المعلومـات والفهم التـي توجد اليوم بـين العملاقين الآسيويين.

والنظـر إلى التاريـخ الحديـث، علـى كل حال، ليسـ مؤشراً لمـا سيأتـي في المستقبل القريـب. وفجـوة الاتصال بـين الصين والهند يجـري التغلب عليها من قبـل. في كل يوم يركـب المسافـرون الصينيون حافلات الـركاب العامة ليعملوا في غورغـاون، ضاحية نيو دلهـي التي تُعدّ مقر حصة كبيرة الحجم مـن الاستثمار الأجنبي في الهند، والهنود أيضاً يذهبون جماعات إلى المطاعم الهندية في هانغجو.

نارايـان سين هـو مثل ابنه تانسين سين عـالم صيني معروف. وهـو يتذكر الاستقبال الحار الذي لقيه حين وصل بوصفه طالباً إلى بيجين في شتاء عام 1955، المتسلم لبرنامج التبـادل الثقـافي الذي حفزته زيارة شـو إن لاي إلى الهند. وقد وصـف رحلته الأوديسية مـن كلكوتا، وهـي رحلة تدل علـى العصر: "وصلـت السفينة إلى هونج كـونج بعد تسعة عشـر يومـاً، وركبتُ قطـاراً من شينـزين في 5 مـن شهر شباط/فبرايـر. وفي تلك الأيام كان يجـب علـى الأجانب الذاهبين إلى الصين بالقطار من هونج كونج أن يذهبوا أولاً إلى شينـزيـن، وبعدئذ يعبرون جسـراً مشياً على الأقدام، ومرة أخرى يركبون قطاراً ليذهبوا إلى غوانغجـو، ومـن هنـاك إلى هانكـو، وذلك عبر نهـر يانغزي على مـتن زورق نقل ثم

يأخـذون قطـاراً متوجهاً إلى بيجين". في أيـام نارايان كان النقل عائقـاً وصار فيما بعد عائقاً مختلطاً بالتوترات السياسية.

لم تبق المسافـة تعوق التعاون العلمي، والفكري، والتجـاري. وأول رحلة جوية مباشرة من بيجين إلى دلهي بدأت في شهر آذار/مارس من عام 2002، ورحلات الطيران المباشر يجـري التخطيـط لهـا الآن من مدن ثانويـة في الصين إلى مـدن ثانويـة في الهند. يبدو المستقبل أكثر تألقاً من قبل.

obeikandl.com